الشـــيخ الـــدردير

(١١٢٧-١٢٠١هـ=١٧١٥-١٧٨٦م)

صوت الحق
ونصير المظلومين

obeikandl.com

على مدار تاريخنا العربي والإسلامي، كان علماء الدين ومشايخ الأزهر هم رموز الأمة المدافعين عن حريتها والزائدين عن حقوق الناس، كان هؤلاء المشايخ ملاذ أبناء الشعب كلما تجبر الولاة، واشتدت قسوة الحكام وتعنتوا وبطشوا.

يسجل التاريخ بمداد من نور مواقف بطولية رائعة ومشرفة لعلماء الدين والمشايخ الذين قاوموا كل مستعمر وحاكم مستبد، وأعادوا الحقوق إلى أصحابها. ولا عجب فالعلماء ورثة الأنبياء، وهم ملح الأمة الذي يصلح كل فساد.

هؤلاء العلماء كانوا أطوع الناس لله، وأحرصهم على رضاه سبحانه وتعالى، وأنصحهم للراعي والرعية، ترى فيهم القدوة الطيبة، والخلق الفاضل، والسلوك القويم، والتمسك بهدى القرآن، وتعاليم رسولهم الكريم ﷺ.

في مختلف العصور قاموا بالنصيحة، وحربوا ووقفوا إلى جانب الحق، لا يخشون إلا الله، ولا يرجون سوى وجه ربهم القدير. بأمثال هؤلاء العلماء والمشايخ صلُح حال المسلمين، وسادوا العالم وكانت دولتهم عزيزة قوية مُهابة، ولن يعود للعرب والمسلمين مجدهم إلا إذا وُجِدَ من جديد في أمتنا أمثال هؤلاء الرجال.

تربى معظم هؤلاء الرجال الذين يفخر بهم التاريخ في رحاب الأزهر الشريف، الذي كان منذ إنشائه قلعة لحماية الدين، يلجأ إليها عامة الشعب وخاصته، حيث كانوا يعتبرون علماء الأزهر حكامهم الروحيين، وأصحاب السلطان والحق عليهم، حتى لقد اعتاد الناس إذا حل بهم مكروه، أو وقع عليهم ظلم، هرعوا إلى الأزهر يستنجدون بعلمائه.

ضد الطغيان:

ومن هؤلاء العلماء الذين وقفوا إلى جانب الناس ضد طغيان واستبداد الولاة «الشيخ أحمد الدردير». وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي حامد العدوي المالكي الأزهري الخلوتي، الشهير بالدردير، المولود ببني عدي مركز منفلوط، محافظة أسيوط، سنة ١١٢٧هـ- ١٧١٥م. وفد على الجامع الأزهر وهو شاب بعد أن جود

القرآن الكريم، فأخذ عن كثير من الشيوخ، وبخاصة عن الشيخين علي الصعيدى والحفني، وتأثر بالحفني روحيا، فتصوف على يديه، وتلقى منه الذكر، وطريق الخلوتية، وصار من أكبر خلفائه. وقد أفتى في حياة شيوخه، مع كمال الصيانة والزهد والعفة والديانة.

وكان يُضرب به المثل في عفته، كما كان مهذب النفس كريم الأخلاق، ومما يروى عنه في ذلك أن «مولاي محمد» سلطان المغرب كان يرسل كل عام بعض الهدايا والأموال إلى علماء القاهرة. وكان ابن هذا السلطان قد وفد إلى هذه المدينة وهو في طريقه إلى مكة المكرمة للحج، فتخلف بها فترة، ونفد ما معه من المال، وتصادف في ذلك الوقت أن حضر رسول سلطان المغرب بالعطايا والأموال إلى العلماء، فرفض «الشيخ الدردير» أن يتسلم نصيبه منها، وقال: والله هذا لا يجوز، وكيف نأخذ مال الرجل، ونحن أجانب، وولده يتلظى من العدم؟! هو أولى مني وأحق فأعطوه نصيبي.

ولما توفي «الشيخ علي الصعيدي»، تم اختيار تلميذه «أحمد الدردير» شيخا على المالكية، ومفتيا وناظرا على وقف الصعايدة، وشيخا على رواقهم بالأزهر، بل شيخا على أهل مصر بأسرها في وقته. فقد كان رحمه الله يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويصدع بالحق، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وله في السعي على الخير يد بيضاء.

وللشيخ الدردير عدة مؤلفات ومن بينها:

أقرب المسالك لمذهب مالك.

تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان.

رسالة في المعاني والبيان.

رسالة في طريقة حفص في القراءات.

رسالة في متشابهات القرآن.

الشيخ الشاعر:

ولا يزال خلفاؤه من السادة السباعية الخلوتية يترنمون في أذكارهم حتى اليوم بقصيدته المعروفة باسم الخريدة السنية في التوحيد، ومطلعها: حمدا لمولانا وشكرا لربنا، وللشيخ الدردير شعرا كثير أغلبه في التصوف والعقائد، ومن ذلك أرجوزته المسماة المزيدة البهية.

وفي السادس من ربيع الأول سنة ١٢٠١هـ- ٢٧ ديسمبر ١٧٨٦م. توفي الإمام العالم العلامة أوحد وقته. في الفنون العقلية والنقلية، شيخ الإسلام «الشيخ الدردير» بعد حياة حافلة بمجالس التدريس بالجامع الأزهر، وتقوى الله ومجاهدة النفس والدفاع عن الحق والعمل على نصرة الشعب ضد كل ظالم.

ومن مواقف هذا الشيخ الجليل دفاعا عن الحق ضد الظلم والاستبداد أنه عندما اقتسم الطاغيتان إبراهيم ومراد بك السلطة في مصر، توالت حوادث الاغتصاب والسلب والنهب وأصبح الناس مهددين في أموالهم وأرواحهم، ولم يجدوا من يدافع عنهم وعن حقوقهم غير مشايخ وعلماء الأزهر.

ملاذ الشعب:

في هذه الأيام العصيبة، نشب خلاف بين أحد البكوات من المماليك ورجل من عامة الشعب، وقف من الأمير موقف الخصم العنيد، فاستمسك بحقه وأبى أن يفرط في شيء منه. ولجأ إلى القضاء(*).

ثار المملوك المدلل، وأرغى وأزبد، وقد أغضبه أن يقف منه موقف الخصم أحد العامة، كان المملوك يعتقد أنه مادام صاحب الجاه والقوة والمركز الخطير، فالحق في جانبه والشريعة في صفه وإن كان على غير الحق. وقالت الشريعة التي لا تحابي كلمتها في النزاع، وأعطت الحق للفلاح، وأراد الرجل المظلوم أن ينفذ حكم

(*) محمد عبد الله ماضي، الأزهر في ١٢ عاما. ص٢١.

الشريعة، ولكن هيبة الأمير وقفت حائلا دونه، وحار الرجل في أمره، وأصبح الحكم معلقا، وكأنه لم يصدر.

لجأ الرجل إلى الأزهر ملاذ الشعب، ومناط آماله، مستنجدا بالعلماء، طالبا الانتصاف له، ولكافة الشعب، الذي إن استنام رجال الدين عن حقه ونصرته، ضاعت هيبة الشريعة أمام أمير من الأمراء وتعطل حكمها.

وطالب العلماء الأزهريون، وعلى رأسهم الدردير بأن تأخذ العدالة مجراها، وأن على الأمير أن يحني رأسه لها صاغرا معتذرا.

وأبى الأمير المعتز بمكانته، وظن أن رفضه سيجعل العلماء يتراجعون عن الاستمساك بمطالبهم، ولكنهم ازدادوا بها استمساكا وأبوا إلا أن يصل الحق إلى صاحبه رجل الشعب، ولو كان في ذلك هزيمة مملوك خطير.

وتطور الأمر، واهتز الأزهر، وخرج العلماء إلى ديوان الوالي يطالبون بالمساواة التي فرضتها الشريعة وأقرها القانون.

وعلا صوت الشعب مؤيدا علمائه وأغلق الناس حوانيتهم، وتوقف دولاب العمل، وتعطلت حركة البيع والشراء.

وسارت الأحوال في اتجاه بالغ الخطورة، وفطن القوم من عقلاء المماليك، فأرغموا صاحبهم على الخضوع للشريعة، ورضخ المملوك الأمير وسلم بأحقية خصمه. ولكن «الشيخ الدرديري» لم يكتف بذلك، بل طلب ومعه إخوانه من علماء الأزهر أن تحرر بما حدث وثيقة رسمية تكون بمثابة صلح وتراض وإقرار بما تم الاتفاق عليه، يستند إليه كل صاحب حق، وتكون مستندا دامغاً يلزم الطغاة بعد ذلك بالاعتراف بحقوق الغير، ولو كانوا من عامة الشعب ضد الأمراء الطغاة.

مع الحق:

ومرة أخرى يعلو صوت الشيخ الدردير مدويا مؤيدا للحق ضد الطغاة، فقد تجاسر «حسين بشفت» أحد رجال إبراهيم بك، على فرض ضرائب جديدة على حي

الحسينية، فلما امتنع الأهالي ذهب إليهم على رأس جنده لإرغامهم على التسديد.

وهجم بجنده على بيت «أحمد سالم الجزار» نقيب الطريقة البيومية وشيخ دراويشها، فنهبوا الدار وما فيها من متاع وفرش وحلي، وكل ما وجدوه أمامهم، وثار أهل الحي وتجمعوا سائرين إلى الأزهر مسلحين بالهراوات والسكاكين، وصعدوا إلى المنارات يدقون منها الطبول، وكأنهم يعلنون الحرب ويحفزون الهمم للقتال.

ووجد رجال الأزهر أنهم أمام جريمة جديدة من جرائم المماليك ضد الشعب، وارتفع صوت «الشيخ الدردير» فأصغى إليه الجميع وهو ينصحهم بالتكتل والتجمع في الغد من شتى البقاع ليهجموا بأسلحتهم علي بيوت المماليك، فينهبوها بدورهم جزاء وفاقا، فإن انتصروا أرهبوا المماليك اللصوص، وإن ماتوا كانوا في الشهداء.

وتسامع عقلاء بكوات المماليك بما حدث، وروعهم أمر التكتل الشعبي المرتقب الذي يمكن أن يدمرهم جميعا لو تم، فهرعوا إلى «إبراهيم بك» الذي طلب من حسين بشفت أن يمتنع عن ذلك، فقد وجد أن الحكمة تقتضي العمل على تهدئة خواطر العامة، قبل أن يستفحل الأمر.

وأرسل إبراهيم عند المساء كتخداه محمد الحلفي وسليم أغا إلى حي الغورية حيث قابلا «الشيخ الدردير» واتفقا معه بوصفه زعيما دينيا لا يعصي الشعب له أمرا أن يعمل علي تهدئة الخواطر الثائرة ويُطفئ نار الفتنة الموشكة علي الهبوب، في مقابل تعهدهما بإرضاء أهالي حي الحسينية بصفة عامة و«الشيخ سالم الجزار» بصفة خاصة فيرد إليه كل ما سُلب منه، وفوقه الاعتذار الذي يرضيه. ومبالغة من إبراهيم في إظهار حسن نيته أصدر أمرا بعزل حسين بشفت من منصبه.

مكانة كبيرة:

وكان أمراء المماليك يعرفون «للشيخ الدردير» مكانته بين أفراد الشعب،

ولذلك كانوا يقصدونه للاستعانة به كلما خافوا ثورة الشعب ضدهم، ومن ذلك ما حدث في الثالث من شوال سنة ١٢٠٠هـ، عندما خشي المماليك من قيام الشعب ضدهم ومساعدته للحملة البحرية التي أرسلها السلطان العثماني للضرب على أيدي المماليك الذين عاثوا في الأرض فسادا، إذ ركب إبراهيم بك الكبير وذهب إلى الشيخ البكري وعيد عليه، ثم إلى الشيخ العروسي، والشيخ الدردير وصار يتودد إليهم، وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن الشغب أو أى حركة في مثل هذا الوقت، لأنه كان يخاف ذلك جدا.

ولأن «الشيخ الدردير» كانت له مكانة كبيرة عند أبناء الشعب المصري لوقوفه إلى جانبهم ضد جور وتعسف الحكام، بلغ من حبهم لهذا الشيخ أن أقاموا له بعد وفاته مقاما يُزار في حي الأزهر كأحد الأولياء إلى الآن، ويقيمون له كل عام مولد يحتفلون بذكراه فيه.

وهذه هي عادة وطريقة المصريين في تحويل من يقود صراعهم ومن يدافع ويتبنى قضاياهم، إلى ولي بعد وفاته وتخليده.